

هوى النفس والعقل



«كلنا يدعي حب» □ عز وجل، المطيع منا والعاصي على السواء، لكن أولى علامات حبه - سبحانه - الذي ندعيه هو الموافقة والاتباع، ومخالفة النفس الأمارة بالسوء وهوها، قال الحسن البصري: "زعم قوم أنهم يحبون □ فابتلاهم □ بهذه الآية، فقال: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ □ فآتوني بحبي يوحى إليكم) (آل عمران/ 31). وقال الحسن: "قال أصحاب النبي (ص): يا رسول □، إننا نحب ربنا حبا شديداً"، فأحب □ أن يجعل لحبه علماً فأنزل □ هذه الآية.. والمحبة الصادقة تعني المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات، قال □ عز وجل: (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ □ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ تَبْيَهُ □ بِأَمْرِهِ □ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة/ 24).

ومن هنا، يجب على كل مسلم ألا يجعل اتباع الهوى يقطع عليه طريقه الموصلة إلى حب □ ورسوله، وألا يقدّم هواه في حب هذه الأصناف على حب □ ورسوله، وأن يقدّم مراد □ ورسوله على مرادهم، وأن ينتهي أولاً عن نواهي □ ورسوله قبل أي أحد. قال سهل بن عبد □: "علامة حب □ حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبي (ص)، وعلامة حب النبي (ص) حب السنّة، وعلامة حب □ وحب القرآن وحب النبي وحب السنّة حب الآخرة".

- الهوى والعقل:

والهوى قد يقطع الطريق على العبد إذا ما اتبعه بغير هدى من □، والمعروف في استعمال الهوى عند الإطلاق: أنه الميل إلى خلاف الحق، كما في قوله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ □) (ص/ 26)، وقوله: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ الْعَنِيَّةَ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات/ 40-41).

وقد يُطلق الهوى بمعنى المحبّة والميل مطلقاً، فيدخل فيه الميل إلى الحقّ وغيره. قال الشعبي: إنّما سمّي الهوى هوى لأنّه يهوى بصاحبه في النار. وأصل الهوى الميل إلى الشيء، ويجمع على أهواء.

وقال ابن عباس: الهوى إله يُعبد من دون الله. وقال: ما ذكر الله في القرآن إلاّ ذمّه، قال الله تعالى: (وَإِتَّبَعِ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِذَا تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ) (الأعراف/ 176)، وقال تعالى: (وَإِتَّبَعِ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (الكهف/ 28)، وقال تعالى: (يَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ) (الرّوم/ 29)، وقال تعالى: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ مَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ) (القصص/ 50).

وقال أبو الدرداء (رض): إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه، فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح. وقد أحسن من قال:

إنّ الهوى لهو الهوانُ بعينه *** فإذا هويتَ فقد كسبتَ هوانا

أمّا العقل، فهو الذي يعقل هواك ويحبسه عن الانطلاق الضار، ويمنعه أن يشطح بصاحبه بعيداً، لذا قال بعض الحكماء: "العقل صديق مقطوع، والهوى عدو متبوع". وقال بعض العلماء: "ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وركب البهائم من شهوة بلا عقل، وركب ابن آدم من كليهما، فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شرٌّ من البهائم".

وقال أبو الحسن الماوردي: وأمّا الهوى فهو عن الخير صادّ، وللعقل مضاد؛ لأنّه يُنتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً، ومدخل الشرّ مسلوكاً.. ولما كان الهوى غالباً، وإلى سبيل المهالك مورداً، جعل العقل عليه رقيباً مجاهداً، يلاحظ عثرة غفلته، ويدفع بادرة سطوته، ويدفع خداع حيلته، لأنّ سلطان الهوى قوي، ومدخل مكره خفيّ.

- حوار بين الهوى والعقل:

وكأنّي بالهوى والعقل يتنازعان ويتصارعان بسيوف الحروف، كلٌّ يريد النصر لنفسه والفوز لصاحبه، ويتجاوران.. فالهوى يفتخر ويتباهى منتشياً وكأنّه أحرزها؛ فيقول للعقل: أنا الهوى الذي حينما استهويك أيّها العقل الصغير فإنّني أسير بك كيفما أريد وحيثما أشاء. فيرد عليه العقل ليفحّمه: وأنا العقل أدعوك إلى الله، وأعقلك عن الشرّ، وأقيدك عن المعاصي، وأحبسك عن البدعة، فلا تفعل إلاّ ما أريد. وتستمر المناظرة بينهما والجوارح تشهد:

* أنا الهوى المشتق من الهويّ، وقد أهوى بك في غفلة منك ودون أن تشعر إلى أسفل سافلين.

* وأنا العقل صنعة الملك العليّ، أدلّ على عظمته، وأدعو لعبادته، وأفكر في طاعته، فأسمو بصاحبي إلى أعلى عليين.

* أنا الهوى أجمع أتباعي على مائدة البدعة ووليمة المعصية، أصحابي كثيرون وأتباعي معروفون، الشيطان صديقي، والنفوس الأمارة بالسوء قرينتي، وصاحبي هو الإنسان المتبع لي على غير هدى، فبارز ربّه بالعميان حين نحاك عنه جانباً أيّها العقل.

* وأنا العقل جامع العقلاء على تناول السُّنة وحلاوة الطاعة، ولذة القُرب ومائدة العلم، ا خالقي، وأهلي هم العقلاء الذين يسيرون على منهج ا ورسوله، وأصدقائي من العلماء الذين يحذرون الناس من شرِّك أيَّها الهوى، وقرنائي من العاملين المخلصين الحريصين على اتباع السُّنة.

وأَسباب اتِّباع الإنسان هواه كثيرة، وعلى رأسها الجهل، يقول ا تعالى: (بَلِّغِ اتَّابِعِ السَّادِينَ طَلَامُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ا وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (الروم/ 29). ويقول: (وَمَنْ أَضَلَّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ ا) (القصص/ 50)، أي يتبعون آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحبُّبه لهم الشيطان بلا دليل ولا حجة مأخوذة من كتاب ا. ويقول: (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَتَمَنَ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) (محمد/ 14). ويقول تعالى للمشركين: (إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ا بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدًى) (النجم/ 23)، فقد اتبعوا هوى أنفسهم، لأنَّهم لم يأخذوا ذلك عن وحي جاءهم من ا، ولا عن رسول ا أخبرهم به، وإنَّما اختراق من قبل أنفسهم، أو أخذوه عن آبائهم الذين كانوا من الكفر با على مثل ما هم عليه منه.

ومنها الكبر.. لذا نجد في القرآن الكريم أن ربنا تبارك وتعالى ينعت بني إسرائيل بالعتوِّ والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنَّهم إنَّما يتبعون أهواءهم: (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا كَذِّبْتُمْ وَفَرِّقُوا تَفْتُلُونَ) (البقرة/ 87).

ومنها غفلة القلب.. قال تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (الكهف/ 28).

كما أن من أسباب اتِّباع الهوى حبُّ الحياة الدنيا، وضعف الإيمان، والصُّحبة السيِّئة، والإعجاب بالنفس، والإصابة بأمراض القلوب المختلفة التي هو من أسبابها وهي نتيجة تابعة له.

- آثار اتباع الهوى:

قد يتسبب الهوى في قطع طريق الخير على الإنسان، ويصده عن اتِّباع الحقِّ ويعطله عن حُسن العمل، وقد يتسبب في إصابته بأمراض قاتلة بالغة الخطورة لها من الآثار السلبية الصارعة على الفرد والمجتمع، بل على النفوس والأرواح، ومن ذلك أنه:

* يُعطِّل الجوارح ويضل عن سبيل ا.. قال تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ ا عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (الجن/ 23). فهو إنَّما يأتمر بهواه فمهما رآه حسناً فعله ومهما رآه قبيحاً تركه، ولا يهوى شيئاً إلا اتَّبعه.

* يؤدي إلى التكبُّب وعدم الاستجابة ورسوله.. قال تعالى: (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّهُمْ أَمْرٌ مُسْتَقَرٌّ) (القمر/ 3). وقال تعالى: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ ا إِنَّ الظَّالِمِينَ) (القصص/ 50). وقال تعالى: (فَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى) (طه/ 16).

* يذهب النعم.. قال تعالى: (وَإِذْ نَزَّلْنَا السُّنَّةَ نَزَّلْنَا آيَاتِنَا

ومن الناس مَن يتبع هواه عن جهل حين يفصل بين العبادة والسلوك وبين الدِّين والخلق، وبين القول والعمل، وما علم الإسلام كلَّ لا يتجزأ!

ومنهم مَن يتبع هواه حين يذهب عقله بمسكر أو مخدر، أو يشوش على فكره بالاعتقادات الباطلة والأفكار الهدامة والوساوس الخبيثة!

ومن مَن يتبع هواه في الحكم على الآخرين، وفي تأويل أقوالهم وأفعالهم الدينية والدنيوية من غير علم فيقع في سوء الظن والتَّهمة لهم بغير دليل، وتتحوَّل ساعات عمره إلى معركة من التَّأويلات والظنون والغيبة والنميمة، التي تتحوَّل بدورها إلى ضغائن وعداوات وشحناء ومخاصمات، ومرجع ذلك إلى اتباع الهوى بغير حجة أو برهان.

ومنهم مَن يتبع هواه في معاملة زوجته بالتطفيف في حقِّها وإهمال الأولاد، وقطع الأرحام، والإساءة إلى الجيران والأصحاب.

ومنهم مَن يتبع هواه في رضاه بالجهل ورضاه بالواقع الذي يعيشه دون سعي منه للتطوير والتحسين والتغيير!

ومنهم مَن يتبع هواه في حبِّ الدنيا وتفضيلها على الآخرة والعمل لها!

ومنهم مَن يتبع هواه في إرهاب الآمنين ويعطي لنفسه الحقَّ في الحكم عليهم بالموت دون وجه حقٍّ وبغير ذنب ارتكبه!

ومنهم مَن يتبع هواه فيسلب أصحاب الحقوق حقوقهم، ويستبيح لنفسه أموالهم وأعراضهم ودماءهم، ويبرر لنفسه الرشوة والسحت والزور والكذب، فيخسر آخرته وإن كسب كنوز الدنيا كلِّها!

ومنهم مَن يتبع هوان ويتلذذ بإيذاء إخوانه من البشر وتعذيب الأبرياء ولم تثبت بعد إدانته، دون أن تهتز به شعرة أو يطرق له جفن أو تدمع له عين!

والأمثلة كثيرة وكلاهما توضح خطورة اتباع الأهواء ومضارها التي تقع على الفرد والجماعة وعلى الأسرة والمجتمع.. ومَن كان هذا حاله من الناس فقد عرَّض نفسه وغيره للهلاك، والنبِيَّ (ص) يُحذِّر فيقول: "ثلاث مهلكات: شحُّ مَطاع، وهوى مُتَّبِع، وإعجاب المرء بنفسه" (الألباني، السلسلة الصحيحة). ويقول: "إنَّما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم، وفروجكم، ومضلات الهوى".

- مفتاح الجنَّة:

وحسبك في نبذ الهوى قوله تعالى: (وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنَ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) (النازعات/ 40-41).. أي خاف القيام بين يديَّ عزِّ وجلِّ، وخاف حكم الله فيه، ونهى نفسه عن هواها وردّها إلى طاعة مولاها وزجرها عن المعاصي والمحارم، فاتقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه.

قال الحسن البصري: أفضل الجهاد جهاد الهوى. وقال ابن السماك: كن لهواك مسوِّفاً، ولعقلك مسعفاً، وانظر ما تسوء عاقبته، فوطِّئ نفسك على مجانبته، فإن ترك النفس وما تهوى داؤها، وترك ما تهوى دواؤها، فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء. وقال سهل بن عبد الله التستري: هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك. وقيل لبعض الحكماء: من أشجع الناس وأحراهم بالظفر في مجاهدته؟ قال: مَن جاهد الهوى طاعةً لربه، واحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه.

مَنْ تَرَكَ اتِّبَاعَ الْهَوَىٰ أَزْدَادَ إِيمَانِهِ وَنَمَا وَظَهَرَ ثَمَرَاتُهُ عَلَيْهِ طَاعَةٌ وَحِبًّا وَاتِّبَاعًا وَمُؤَافَقَةً وَمِرَاقِبَةً وَخَوْفًا وَخَشْيَةً وَإِنَابَةً، وَسُلُوكًا وَخَلْقًا وَقَوْلًا وَعَمَلًا، فَاسْتَعْنِ بِهَا وَلَا تَكُنْ صَرِيحَ الْهَوَىٰ. قَالَ وَهَبٌ: إِذَا شَكَّكَتْ فِي أَمْرَيْنِ وَلَمْ تَدْرِ خَيْرَهُمَا فَانظُرْ أَبْعَدَهُمَا مِنْ هَوَاكَ فَأْتَهُ، وَحَسْبُكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ الْفَاسِقَةَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) (النازعات/ 40-41).

وإذا أمرتك نفسك في لحظة ضعف باتباع هواها في غير ما يرضي ربها فاعلم أن ترك الهوى مفتاح الجنة، وأن اتّباع الهوى يقطع عليك طريقك إلى دار الخلود: "ألا إن سلعة اّ غالية، ألا إن سلعة اّ الجنة". ▶